

محاضرات في النقد العربي القديم

أ.د / عبد العليم بوفاتح - المدرسة العليا للأساتذة - الأغواط (2017 / 2018)

المحاضرة الأولى : لحة موجزة : الأدب العربي القديم والنقد .

1 / الأدب العربي قبل الإسلام (الجاهلي) :

يبدأ الأدب العربي القديم منذ ما قبل الإسلام (العصر الجاهلي) شعراً ونثراً بكل أشكاله وأنواعه ، ويمتد إلى ما بعد العصر العباسي؛ علماً أنه قد عرف في هذه المسيرة الطويلة تطوراً بدرجات متفاوتة. وعرف في العصر العباسي فنوناً أدبية مستحدثة لم تكن معروفة من قبل ، غير أن ذلك كله يدخل في الأدب القديم بالنسبة إلى ما بعده من العصور.

وأقدم أدب حي نشأ في بادية " نجد " كان شعراً غنائياً في شكل سمي "القصيدة". ويعد امرؤ القيس الذي وصل بهذا الفن إلى ذروة شامخة، من تلاميذ مدرسة نجد. وظلت القصيدة الجاهلية النجدية في شكلها العام، حتى العصر الحديث، مثلاً أعلى يحتذى. لا نعرف الصور التي تصور المحاولات الأولى، ولكن مدرسة نجد ترجع إلى ما قبل القرن 4م. وفي القرن 6م، انتشر الشعر من نجد إلى سائر أنحاء الجزيرة، وحمل خصائص محلية، ولكن سلطان المثل النجدي لم يضعف إلا بظهور الإسلام.

يختلف شكل القصيدة العربية عن شكل القصائد المعروف في الآداب الأخرى. وتمتاز بأن موضوعها، وهو المديح، يمهدها له بوصف الرحلة إلى الممدوح، ويقدم للرحلة بشعر في النسيب يشكو فيه الشاعر فراق الأحبة. وفي الرحلة يتاح للشاعر أن يصف جواده، أو ناقته، والطبيعة من حوله، وحياة الحيوان وصراعه مع غيره من الحيوانات أو مع الطبيعة. والمدح يتغنى بفضائل الصحراء ويصف حياة الكريم في ضيافته وشربه وحروبه. وتتعدد أبيات القصيدة لتصل إلى المائة أو تزيد، وكلها تلتزم بحراً واحداً وقافية واحدة.

والمعلقات (العشر أو السبع) هي خير نموذج ومثال على هذا الشعر. ولاشك أن الكثير من الشعراء قد ضاع شعرهم ولم يصل إلينا منه شيء.. وقد تنوعت القصيدة أحياناً بتنوع المناطق العربية ، فشعر القبائل العربية المتاخمة للغساسنة والمناذرة تختلف في بعض خصائصها عن القصيدة العربية في القبائل الأخرى، بفعل تأثير البيئة وظروف الحياة..

من أهم خصائص القصيدة في العصر الجاهلي:

- النسيج على الشكل الذي عُرف به الشعر العربي في عصوره الأولى، في إطار أبيات وأشطر لها قافيتها وإيقاعها.
- تعدد الأغراض والموضوعات (الوصف ، الرثاء ، الحماسيات ، الهجاء ...)
- شيوع المثل والحكمة في القصيدة، كما نجد لدى زهير بن أبي سلمى ، طرفة بن العبد.
- انتشار الصورة الوصفية : وصف النساء (النسيب) ، وصف الصيد ، وصف الحيوان ، وصف الصحراء والأطلال..
- الدقة والطابع الواقعي، والأسلوب المباشر في الوصف.
- تركيز النقد على البيت الواحد الذي هو محور الحديث والحوار بين الشعراء وغيرهم..
- وحدة الفكرة والموضوع .
- وحدة الصورة وقربها إلى الذهن (قلة التخيل: فالشعر الجاهلي يتسم بالبساطة من دون إحياء وتأويل)
- الاهتمام بدلالات الألفاظ أكثر من الاهتمام بالمقاصد من الخطاب.

وقد حازت بعض القصائد جمالاً وسحراً ، مع أنه لم تكن توجد في هذه الفترة قصائد خاصة في موضوع واحد، إلا مقطوعات قليلة في الخمر. أما القصائد الطرديات فتكاد تكون منعدمة، ذلك أن وصف الصيد كان جزءاً من القصيدة العامة. أما شعراء الحضر في الجاهلية، فقد اختلف شعرهم قليلاً من حيث الموضوع والمعالجة، ولكن الذي بقي لنا منه قليل، أشهره شعر عدي بن زيد في الخمر، وشعر أمية بن أبي الصلت الديني. وليس هناك ما يقطع بعدم احتمال كتابته بعض الشعر قبل الإسلام، ولكن الواضح أنه لم يصلنا منه شيء.

لم يبدأ التدوين للشعر الجاهلي قبل القرن الثامن للميلاد.. على الرغم من أن بعضهم يتحدث عن نصوص قديمة تم توثيقها.. وأما النثر فكان أوسع مجالاً للشك في صحته، ولكن هناك أدلة على أن تجويد النثر كان معروفاً. فلقد وصلت حكم وأمثال تصور فن الإيجاز المتجلى في صناعة القصيد. وهناك إشارات إلى صحف مكتوبة في الجاهلية. وربما كانت بعض الأحكام القضائية تكتب للاطمئنان إلى تنفيذها. ولكم بأي شكل يتم توثيقها وكتابتها..؟

وهناك نماذج من الخطابة - مما وصلنا - تمتاز بالإطناب والسجع والمقابلة بين الفقرات المتساوية طولاً وقصراً، وإذا كانت الفقرات التي أوردها الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" تدل على مستوى هذا الفن، فإنه من العسير أن نطمئن اطمئناناً كاملاً إلى صحة نصوص هذه الخطب، فقد يصح بعض فقراتها وليس الكل.

وأما المثل، الذي يكون بلهجة القبيلة المحلية، فإن الاطمئنان إلى لفظه أعسر. وقد وصلت عن هذه الفترة أيضاً بعض الأحاجي والقصص عن الحيوان والمحيط البدوي، وقصص أخرى عن العرب وأيامها، ومع أننا نشك في نصها إلا أننا نطمئن إلى وقائعها، وإلى فنية التركيب والبناء فيها، ونطمئن أيضاً إلى بعض فقراتها، وإلى الشعر الذي يجليها ويحليها.

2/ الأدب الإسلامي :

يراد بالأدب الإسلامي ذلك الإنتاج الأدبي الذي عُرف في العصور الإسلامية الأولى (العصر الراشدي ، العصر الأموي ، والعصر العباسي) فالعصر الإسلامي الأول (الصدر الأول) يشمل صدر الإسلام، والعصر الأموي (الصدر الثاني) ؛ وأما العصر الإسلامي الثاني فيشمل العصر العباسي..

أهم خصائص الأدب الإسلامي :

يمكن إيجاز أهم خصائص الأدب الإسلامي في العناصر الآتية :

- اتصال التجربة الشعرية بالقيم الدينية المستمدة من القرآن الكريم والحديث الشريف..
- الاتزان في الخيال والقرب من واقع الحياة أكثر.
- التلاؤم بين المشاعر والبناء الفني للنص الأدبي، والاتزان وفي استعمال الألفاظ وحسن انتقاء أجودها فصاحة وبلاغة.
- التحلي بالقيم العالية والأخلاق السامية
- الالتزام بالمعايير الأخلاقية وبمعالجة قضايا الشعوب والمجتمعات انطلاقاً من وجدان الأديب اصالة لا تصنعاً.
- اعتماد الصدق في التجربة وفي المضامين الأدبية.
- اعتماد مبدأ الاصالة في توظيف اللغة الصافية والاسلوب البليغ والإيقاع
- الارتقاء في اختيار المعاني الشريفة ذات الأبعاد الهادفة إلى نشر القيم الفاضلة
- تغليب سلطان العقل على سلطان الخيال
- الاعتدال والاتزان في توظيف الصورة

لقد أستمَدت خصائص هذا الأدب الإسلامي من مصدره الأساسي ، ألا وهو القرآن الكريم ؛ إذ لما جاء القرآن الكريم بالعربية الفصحى التي هي في أغلبها من لغة قريش التي سادت قبيل الإسلام، لم يكن في نظمه المعجز ما يشبه أي نثر أو شعر قبله، كما أن من بديع إعجازه أنه لم يخرج عن الإطار العام للذوق العربي الذي ظل يتباهى به الشعراء الفصحاء والخطباء الموفوهون في ذلك العصر، ومن إعجازه أيضاً أنه باقٍ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فلا يصيبه ما يصيب سائر الكلام من قَدَمٍ وبلى وتغيّر وتبدل... فكان أن تأثر الإنتاج الأدبي نثراً وشعراً بلغة القرآن وأسلوبه، والتزم في مضامينه بتعاليمه السمحة..

وقد اضافت لغة القرآن واسلوبه إلى الأدب العربي كثيراً من الخصائص الجديدة التي ارتقت به، إذ استعمل القرآن الكريم طرقاً جديدة في القصص لم تكن معهودة، وجاء بالحجج التي لم يألفها العرب في خطاباتهم ولا في قصصهم. إذ انبهر به العرب لما رأوا خطاباً جديداً سامياً وأسلوباً فريداً عالياً في شكله وفي مضمونه، على غير ما ألفوا في بيانهم، إذ يستعمل السجع بفن ساحر، كما يكسب الفكرة قدرة على التأثير بذاتها.

وكان للقرآن الكريم الفضل في تخلص الخطباء من سجع الكهّان وما كان على شاكلته في الجاهلية، كما دفعهم إلى الاهتمام بالموضوع والفكرة، وأثر في اتجاهات الخطباء والحكام والخلفاء، ورشد وجهة الكتاب والوزراء في رسائلهم وتوقعاتهم، حين نشأت الكتابة في خلافة الأمويين..

وفي العصر الإسلامي بدأ الشعر يصور التغيير الاقتصادي والاجتماعي، الذي نشأ من انتشار الدعوة المحمدية وتكوين الدولة الإسلامية، ففقد الهجاء مركزه الجاهلي، وإذا هو في صورة جديدة، هي المناقضة بين الشعراء أو طوائف منهم. واصبح الغزل ينفرد بقصائد كاملة في بعض المدن الزاهرة في الحجاز، فيرق أسلوبه بالهجة الحجازية، وذلك عائد إلى شيوع فن الغناء وتأليف الشعر الغزلي الغنائي. وقد كانت بيئة الغزل هي الحجاز ، وعرفت نوعي منه: النوع القصصي المباشر، الذي يمثله ، والنوع العذري العفيف، عند الشعراء العذريين مثلما نجد عند جميل والأحوص والمجنون.

بعد ذلك ظهر الشعر السياسي، وتطور الرجز، واصبح للشعر دوره الاجتماعي. وهنا يتوافق الشكل مع المضمون، لتعود القصيدة العربية إلى مكانتها وقوتها، بعد أن خطت عدة خطوات نحو التطور والارتقاء من الناحية الفنية..

عناصر العمل الأدبي :

العمل الأدبي هو كل نشاط مكتوب يتناول قضية أو يصور تجربة أو يعالج فكرة ما أو يترجم أحاسيسه وخواطره التي تنتابه بأسلوب أدبي جمالي فني، ويمكن أن يكون شعراً (شعر عمودي ، شعر التفعيلة ...) أو يكون نثراً (رواية ن قصة ، مقامة ، خاطرة) وأما عناصر العمل الأدبي فتتلخص في: الفكرة والأسلوب والعاطفة والخيال

الفكرة : هي موضوع العمل وهي الرسالة التي يريد الكاتب أو الأديب أن يبلغها إلى القارئ ؛ **وأما العاطفة :** فهي تمثل المشاعر والأحاسيس التي يحملها الأديب متأثراً بها ومؤثراً في متلقيه، وقد تكون عاطفة فرح أو إعجاب أو حزن أو ألم أو حيرة أو قلق أو تأمل أو ما إلى ذلك مما ينتاب نفس الأديب ؛ **وأما الخيال** فهو ذلك الطابع الفني الجمالي الذي يضيف على العمل طابع الإبداعية، بما يتميز به من تصوير يستميل القارئ ويستدعي خياله ليتفاعل مع ما يتلقاه ؛ **وأما الأسلوب** فيمثل القلب الذي يصب فيه العمل الأدبي ليكون في شكل جميل بدءاً من حسن انتقاء للألفاظ المستعملة إلى توظيف الأسلوب المناسب في الصياغة التعبيرية، إذ يحسن الأديب توظيف هذا الأسلوب بحسب السياقات والقرائن والظروف المحيطة بالعمل الأدبي، ذلك أن للأسلوب دوراً مهماً في تبليغ الفكرة وتحقيق التأثير في المتلقي..

1/- تعريف النقد في اللغة والاصطلاح :

النقد في اللغة :

يرتبط المصطلح غالباً بوشائج مع أصوله اللغوية التي تكشف بعضاً من معانيه دون الإلمام الكامل بالمعاني الأخرى المتمثلة فيه؛ وذلك لأن المصطلح بطبيعته يتجاوز الدلالات المعجمية إلى دلالات خاصة أخرى؛ ليصبح بذلك مفهوماً خاصاً بين الثقافات والشعوب. وحتى نتعرف إلى الأصول اللغوية، ومدى ارتباطها بمصطلح النقد الأدبي؛ سأقف عند بعض ما له صلة بالنقد الأدبي ، فمن معاني هذه اللفظة : تمييز الدراهم وغيرها وتبيين جيدها وريديها وصحيحها وزائفها...

وجاء في القاموس المحيط في مادة " نقد " قول الفيروزآبادي: " النقد: هو التمييز بين الأشياء نقول: نقدت الدراهم أي ميزت الجيد منها من الزائف والنقد هو المناقشة، نقول: ناقده في المسألة أي ناقشه. ويطلق النقد على الوزان من الأشياء أي: الراجح منها، ويطلق كذلك على لدغ الأفعى وعلى النظر إلى الأشياء خلصة".

النقد في الاصطلاح :

Criticism : هو فن تقويم الأعمال الأدبية والفنية ، وتحليلها تحليلاً قائماً على أساس علمي . وهو

الفحص العلمي للنصوص الأدبية من حيث مصادرها، وصحة نصها، وانشائها، وصفاتها وتاريخها. (معجم المصطلحات العربية، وهبة والمهندس، ص417) وأول كتاب وصل إلينا في النقد وتاريخ الأدب وهو كتاب طبقات الشعراء الذي كتبه ابن سلام الجمحي في القرن

الثالث الهجري... وقد أضيفت كلمة الادب إلى كلمة النقد ليفيد الأساليب أو الطرائق المتبعة في تحليل الآثار الأدبية وتصنيفها ، وتمييز الجيد من الضعيف فيها ، سواء أكانت لكتاب من المتقدمين أم كانت لكتاب من المحدثين، بهدف الكشف عن وجوه الإحسان في الأبداع الأدبي ، والإدلاء ببيانات دقيقة تحكم على هذه الآثار قوة وضعفاً، في ضوء مبادئ يفترض أن يختص بها ناقد أو مجموعة من النقاد يصدر عن هذا الحكم أو ذاك."

ولم تكتسب الكلمة معناها الاصطلاحي والفني إلا في أواخر القرن الثالث وبداية القرن الرابع خصوصاً عند قدامة بن جعفر الذي يعدّ كتابه (نقد الشعر) من المصادر الأولى التي أول تحمل هذا المصطلح.. يقول قدامة في هذا الشأن أنّ " العلم بالشعر ينقسم أقساماً، قسم ينسب إلى علم عروضه ووزنه وقسم ينسب إلى قوافيه ومقاطعته، وقسم ينسب إلى علم غريبه ولغته، وقسم ينسب إلى علم معانيه والمقصد منه، وقسم ينسب إلى علم جيده وريئيه، وقد عني الناس بوضع الكتب في القسم الأول وما يليه إلى الرابع عناية تامة... ولم أجد أحداً وضع في نقد الشعر وتخليص جيده من ريئيه كتاباً، وكان الكلام عندي في هذا القسم أولى بالشعر من سائر الأقسام المعهودة.."

يستخلص من النص أن قدامة قد حدد المفهوم الاصطلاحي لكلمة نقد، الذي هو " تمييز جيد الشعر من ريئيه" والذي سيبقى هو المفهوم الشائع عند النقاد القدامى. غير أن الاستعمال الاصطلاحي لا يبعد بالكلمة عن معناها اللغوي الأصلي، يقول بدوي طبانة في كتابه "دراسات في نقد الأدب العربي": "إن مفهوم كلمة" النقد" في الأدب لا يبعد عن مفاهيمها اللغوية التي عرفها أصحاب اللغة الأصليون، بل إن أكثر المعاني الحقيقية يمكن أن تلحظ في هذا الاستعمال المجازي في نقد الشعر."

وخلاصة القول :

أن النقد بمفهومه الاصطلاحي هو دراسة الأعمال الأدبية وتفسيرها وتحليلها وموازنتها بغيرها ثم الحكم عليها لبيان قيمتها ودرجاتها وتتنوع أنواع النقد بحسب الموضوع والمجال ، ومنها على سبيل المثال :

- 1- التاريخي الذي يشرح الصلة بين الأدب والتاريخ
- 2- الشخصي الذي يتخذ من حياة الأديب وسيرته وسيلة لفهم آثاره وفنونه
- 3- الفني وهو الذي يتناول النصوص الأدبية بالتحليل.

مناهج النقد الأدبي :

هناك عدة مناهج نقدية متداولة في ممارسات النقاد والمنظرين ، وأبرز هذه المناهج : المنهج التاريخي ، والمنهج النفسي ، والمنهج الاجتماعي ، والمنهج البنوي، والمنهج التكلمي ..)

- 1/ فالمنهج التاريخي: يعمد فيه الناقد إلى النظر في العوامل التاريخية التي تحيط بالعمل الأدبي، كخصوصيات العصر والبيئة ومختلف الأحداث والوقائع التي تميز الفترة المعنية بالدراسة، ثم النظر في علاقة ذلك كله بالأثر الأدبي..
- 2/ والمنهج النفسي: هو الذي يعنى فيه الناقد بالتركيز على حياة الكاتب أو الأديب ودراسة نفسيته ومختلف المؤثرات والدوافع النفسية التي كانت سبباً في انتهاجه مسلكاً معيناً أو أسلوباً خاصاً أو أخذه بمبدأ معين في كتاباته.. ذلك أنّ الأدب في هذه الحالة يكون انعكاساً لما تكون عليه نفسية الأديب، ومن دراسة إنتاجه يتم التعرف عليه أكثر..
- 3/ والمنهج الاجتماعي: هو الذي يتناول العمل الأدبي من حيث كونه وثيقة اجتماعية تصور حياة المجتمع والعلاقات القائمة بين الناس، كما أننا نجد من الأدباء من يلزم نفسه بالكتابة للمجتمع ومعالجة قضاياها، وهذا النوع من الإنتاج الأدبي خير ما ينطبق عليه المنهج الاجتماعي في نقد عمله الأدبي..
- 4/ وأما المنهج البنوي: فهو المنهج الذي يقوم على دراسة العمل الأدبي في ذاته ولذاته، بعيداً عن كل المؤثرات الأخرى النفسية والاجتماعية وغيرها، إذ إنّ بنية النص هي الجديرة بالدراسة والتحليل، وذلك من حيث شكله ومضمونه..

5/ وأما المنهج التكاملي: فهو منهج كل المناهج، أو : هو منهج اللّامنهج ، ذلك أنّ الناقد في هذا المنهج لا يتقيد بجانب معين دون سواه، ولا يفضل منهجاً على آخر، وإنما يتجرد من التأثير من أي منهج، ويسعى إلى تطبيق ما يراه مناسباً للدراسة، وبهذا قد يمزج بين أكثر من منهج في دراسة العمل الأدبي إذا رأى ضرورة في ذلك..

وظائف النقد الأدبي وغاياته :

واستعملت للتفريق بين وظائف النقد الأدبي ، وغاياته، نعوت مختلفة يحدد كل نعت منها نوع النقد الأدبي وأهدافه. فثمة نقد أدبي انطباعي وهو النقد الذي يهتم فيه الناقد بتقديم انطباعاته الخاصة حول الأثر الأدبي الذي يتناوله بأسلوب شائق وجذاب... والنقد البلاغي ومعظم النقد العربي القديم من هذا النوع. .. والنقد التطبيقي وهو النقد الذي يقوم على تحليل الأدب تحليلاً داخلياً دون النظر في أسباب كتابته أو حياة صاحبه.

واستعملت كلمات مثل : فلسفي، ونفسي ، وأخلاقي ، واجتماعي للدلالة على أنواع من النقد المتأثر بالفلسفة أو الأخلاق أو المجتمع والنقد اللغوي للدلالة على النقد المتأثر بمعرفة قواعد اللغة من صرف ونحو. ويعد الدارسون كتاب الموشح فيما أخذه العلماء على الشعراء للمزباني من النقد اللغوي.

ولا تفوتنا الإشارة إلى أنواع النقد، منها النقد المسرحي، والنقد المقارن وهو النقد الذي يعتمد المقارنة بين أعمال أدبية تنتمي للفتين مختلفين كالمقارنة بين رواية روبنسون كروزو لديفو البريطاني ورواية حي بن يقظان لابن طفيل العربي. وأياً كان التعبير الذي يطلق على النقد فهو تعبير الهدف منه تحديد المنهج الذي تمت من خلاله دراسة الأعمال الأدبية.

أما النقد الخالص فهو الذي يهتم بنظرية الأدب أكثر من اهتمامه بأعمال أدبية معينة. مثل كتاب فن الشعر لإحسان عباس، وفن القصة لمحمد يوسف نجم.

النقد الأدبي وتاريخ الأدب :

علينا أن نفرق بين النقد الأدبي وتاريخ الأدب. فالنقد هو الذي عرفناه فيما تقدم وسبق، أما تاريخ الأدب فهو ترتيب الآثار والأعمال الأدبية ترتيباً زمنياً بحسب ظهورها مع استعراض العوامل والأسباب والمؤثرات التي أدت إلى نهوضها أو تطورها أو تنوعها أو تدهورها، والإلمام بأخبار الشعراء والكتّاب. فتاريخ الأدب لا يعني بتحليل النصوص الأدبية، والمفاضلة بينها، أو الحكم عليها بالضعف أو القوة، لأن ذلك من مهام النقد، وإنما يعني تاريخ النقد بما يحيط بالعمل الأدبي لا بالعمل في ذاته من حيث شكله وبنائه وأساليب صياغته ومستواه ودرجات جودته..

ويشار إلى أن مؤرخي الأدب والموازنات يعتمدون على آراء النقاد في ترتيب الأدباء حسب مكانة كل أديب منهم. وقد يكتمل مفهومنا للنقد إذا فرقنا بين قديمه وجديده. فالنقد والأدب ظهرا متزامنين. وإذا كان الأدب قد ولد مكملاً فإن النقد ظهر بعده وأخذ يتطور ببطء متأثراً في نموه وتطوره بالمستجدات الأدبية، باعتباره تابعاً للأدب ونابعاً منه، كما أن النقد منطلقه ذوق القارئ أو المتلقي أما تاريخ الأدب فمنطلقه وصفي محض لظروف نشأة الأدب وتطوره..

أي أن الأدب يصدر عن المبدع (الكاتب) نحو جمهوره، ويحتاج إلى فترة قبل أن يصدر عن مادته منهج نقدي يتناوله بالدراسة، بحيث ينتشر هذا المنهج أو النظرية بين المشتغلين في هذا المجال (النقاد) من خلال تداولها في دراسة المادة الأدبية والحكم عليها.